

قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلم في تليفون الدُّكان بصوت مُرتفع، يُسمع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصالح، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظري سأحضر فوراً".

طويل القامة نحيلها وروي الجبهة والعينين. مُكَوِّر الذقن وأما صلعته فلم يبقى فوق مرأتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفسح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان الذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يمنة بمحاذة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتى وجده متقداً إلى الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى صفتة الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعله المفاجئة أو سوء التقدير وثبت إلى الأمام وهو يهتف "يا ساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندت عن الرجل صرخة كالعلاء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفور صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفاً على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه وإندي رجلية ممدودة إلى آخرها والأخرى منثنية منحرسة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائهما، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهها مستجيهاً عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لكنه طار في الهواء والعياز بالله" وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصبح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعيتهم لا تحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وشقاقها وقال إنسان: "سيبني هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعتراض الحادث جانب الطريق واضطررت السيارات إلى الإلتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في مشاة. فضاق بها حتى تحركت في بطيء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتدخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تلعلت أعين إلى الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلوذنية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهد؟" فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، وأدرك الضابط ما يعني ذلك على حين استطرد رجل الإسعاف قائلاً: "أعتقد أن الحالة خطيرة جداً". وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، ثم التفت إلى مساعدته قائلاً: "إصابة خطيرة في الرئة اليسري، عملية! فهز رأسه قائلاً: إنه يحتضر! وصدقت فراسة الطبيب فلقد تحرك الرجل حرقة شاملة كالرعشة واضطرب صدره اضطرباً متلاحقاً متحسراً، ثم شهق شهقة خفيفة واستكثن، وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقداً بكمال ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، وقال الطبيب: "هذه الحادث لا تنتهي"، فقال الضابط وهو يوميء إلى الفقيد: "شهادة الشهود ليست في صالحه"، وشرع في عمله على حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتحها جبباً، ويملي على الشاويش: "خمسة وأربعون قرشاً من العملة الورقية، روشتة للدكتور فوزي سليمان"، وألقى نظرة عابرة على أسماء الأدوية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، ثم واصل إملاؤه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها. ولما لم يجد شيئاً آخر في الحافظة قال بضمير: "لا توجد بطاقة تحقيق شخصية"، وانتقل إلى الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، فأمل أن يصادف فيها ما يستطيع أن يستدل به على شخصية الرجل. نظر أول ما نظر على الإمضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، فعاد إلى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلى أخي العزيز أدامه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بداً من قرائتها. وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلى الوجه الباهت المشئوب بزرقة مخيفة المغلق كسر، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت على شيء: فانتبه إلى نفسه وابتسم ابتسامة إستهانة ليدل على اعتياده أي شيء وقال "اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة" بذلك بدأت الرسالة وعاد إلى القراءة متجنباً النظر إلى عيني الطبيب، فقد انزاحت عن صدري

الأعباء المريرة، أمينة وبهية وزينب في بيتهن، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكده وشقاءه أَحمد الله المتنان، وهذا هو النصر المبين" ، واسترق النظر مرة أخرى إلى الإنسان الراحل الذي لا يدرى أحد مقره، الذي يتثير الدهشة بصمته وانعزاله وارتداده، العميق إلى المجهول، وبعد تفكير طويل، قرّ رأيي علي ترك الخدمة فعلاً